البربر في جيش المنصور بن ابي عامر

أ. بوخاري عمر
جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص الموضوع

تطلب المشروع العامري في إعادة هيكلة أجهزة الدولة المشروع في إصلاحات الجيش في المقام الأول، حيث كانت هذه المؤسسة في حاجة إلى دم جديد، فعمد إلى تطعيمها بالعناصر البربرية التي كان على معرفة بطبائعها وحسن بلائها في الحروب والمداهمات، فظل يستكثر ويستزيد منهم، ويزرعهم في صفوف جيشه بانتظام ليكون بهم قاعدة صلبة، حتى غصت بهم الكتائب والأجناد حتى بلغوا أعلى المراتب في الجيش الأندلسي.

لقد استطاع المنصور بهذه السياسة المنتهجة أن يبعد الارستقراطية العربية الأندلسية المتنفذة في الجيش وأن يقضي بواسطتها على المناوئين من رجالات الدولة فخاض بهم دياجير الحروب مع النصارى في غزوات زادت عن خمسين غزوة كللت معظمها بالانتصار.

Abstract

In reconstructing the state apparatus, the Amiri's project had to initiate reforms to the army in the first place. Because this institution was in need to new blood, Elmansour rainforced it with Berber elements whom he had good knowledge of their behaviour and good deeds in wars and raids. Thus, he he used to increase their number plunting them

regularly in the ranks of his army to form a solid base . This created a big throng inside battalions and armies, and Berbers could reach the highest grades in the Andalussian army.

This policy enabled Elmanssour to offset the influential arestocratic Andalusian Arabic from the army, defeat hostile statesmen and wag, with these Berbers, dangerous wars against the Christians in more than fifty invasions ended, mostly in victory.

يرجع اهتمام الأموين بالبربر العدويين إلى عهد الحكم المستنصر الذي شذّ عن سياسة أسلافه الذين كثيراً ما كانوا يتوجسون من هذه الفئة ، لما كانت تحمله من الأعباء في دمجهم في المجتمع الأندلسي، ناهيك عن نفرتهم الطبيعية منهم .

ولما دعت الحاجة إلى الاعتماد عليهم لم يتوان الحكم في استقدام هؤلاء البربر، وتفريغ العدوة المغربية من هؤلاء الأبطال، بل فتح المجال لهم ليبلغوا أعلى المراتب في صفوف جيشه بعد أن تخلى عن نظرته السلبية تجاههم، ونلاحظ ذلك جليا في النص الذي أورده ابن حيان حيث يقول: "...فيهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر الرئاسة جميعهم من البربر الذي طال مقت السلطان لهم وزهده فيهم"[1].

لقد كانت سياسة الحكم في اصطناع البربر نابعة من قوة هذه العناصر وحسن بلائها في الحروب، وبخاصة عندما شهد ثباتهم في لجج الحرب الأخيرة مع ابن كنون.

وكانت المؤهلات الحربية التي عرف بها البربر من شجاعة وفروسية وإقدام [2] من الشروط التي يتطلبها الجيش الأندلسي على عهد الحكم حيث يحدد ابن حيان هذه الخصال متحدثا عن موقف الحكم: "فمنحهم الله قبوله وحسن عنده زيهم واستنبل تخفيفهم في مراكبهم وانكماشهم في ثقلهم ورأى أن أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق

بخيولهم"[3] وبذلك فقد أضاف الحكم دما جديدا لجيش الخلافة الذي –حسب ظني- لاحظ المستنصر شغورا حرص على ملئه بهذه الفلول من البربر.

وظل الحكم محبورا بهذه الفئة من جند البربر، لا يفتأ يشيد بها حتى في ساعة مرضه الذي مات فيه، حين كان يمتع نظره باستعراضهم أمامه : "حتى لظل أيام علته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام إعطائهم، يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب شاخصا إليهم معجبا بهم يقول لمن حوله انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر[4] بقوله:

فكأنما ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم[5].

واستنادا لهذه الوقائع فإنه يمكن اعتبار عهد الحكم هو بداية لسياسة الاعتماد على البربر في تشكيل الجيش الأموي حيث أصبحت صفة البربرية بادية على الجيش الأموي عندما انبث في هيكلته العامة قادة بارزون كان لهم قصب السبق في العديد من الوقائع التي سوف تشهدها الأندلس في عهد الدولة العامرية أو في عهد الفتنة التي أعقبتها كما سوف أبين ذلك بشيء من التفصيل.

*** البربر في اصلاحات الجيش العامري:**

لما توفي الحكم المستنصر 366هـ/976م خلفه ابنه هشام المؤيد ليكون الخليفة الثالث في مسلسل الخلفاء الأمويين بالأندلس حيث تبرز مع هذا الخليفة الحدث، شخصية المنصور ابن أبي عامر الذي تولى الحجابة [6] واستطاع أن يشق طريقه كقائد عسكري

وسياسي بإرادة قوية منتهزا في ذلك الفرص المتاحة لتقوية نفوذه على حساب رجال الدولة واستطاع بدهائه أن يمكر بهم وأن يضرب بعضهم ببعض ومن أجل استكمال هذا المشروع عمد إلى إصلاح الجيش فاسحا المجال للعناصر البربرية[7].

ليس هذا فحسب بل جعله قطب رحى لهذه الإصلاحات، لما تميز به البربر من خبرة قتالية، ومراس شديد، والتفاني في الانقياد والتحمل[8] وهو ما يؤكده ابن حيان: "وأسرع موت الحكم على تفيئة ذلك فأعقبهم عاقب جعفر بن عثمان في تدبير سلطان هشام الوالي بعده محمد بن أبي عامر خيره فاستظهر بهم على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم على طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاض بهم الدياجير في حياته"[9].

تطلبت هذه الإصلاحات استئصال الأحقاد والضغائن من صفوف جيشه البربري المكون من مختلف القبائل المغربية، وفي مقدمتها القبيلتان الكبيرتان (زناتة وصنهاجة) اللتان دارت بين أسلافهم حروب طاحنة جندلت فيها آلاف الرؤوس ومنها رأس زيري بن مناد، كما سأبين ذلك لاحقا. فتمكن المنصور أن يجمعهم في جبهة واحدة ويقف في وجه أعدائه في الداخل والخارج وهو ما أورده ابن خلدون "ولما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة[10].

ويستخلص من النص الذي أورده ابن خلدون أن المنصور ابن أبي عامر فتح الباب على مصراعيه لمختلف القبائل البربرية، لا يفتأ يستغل كل فرصة لاستقطابهم، حيث اتفق أن تحرك في هذه الفترة نائب الفواطم على إفريقية، بلكين بن زيري الصنهاجي في حملته التي

أجهز بها على المغرب الأقصى، وأجفلت قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبتة قاعدة الخلافة الأموية في المغرب [11]. فاستغل المنصور هذه الحادثة وبعث إلى رجال زناتة يدعوهم إلى القدوم إليه وكان أعوانه قد أشاروا عليه بذلك حين قالوا له: "قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم فأرسل إليهم يأتوك سراعا فيجد إحسانك إليهم مكانا"[12].

إلا أن المنصور بن أبي عامر كان أعرف الناس بالبربر يعرف خصال الشراهة والطمع فيهم فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذي أولوه إياه[13].

وظل يستكثر ويستزيد من عناصرهم ويزرعهم في صفوف جيشه بانتظام ليكون بهم قاعدة صلبة لمواجهة أعدائه ويحدد الصفدي عدد المجندين من البربر في جيشه بأربعة آلاف ومائتي فارس[14]، أما ابن الخطيب فيحدد عددهم بخمسة آلاف: ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور بن أبي عامر"[15].

وكان الذي شجع المنصور بعد مستشاريه معرفته بطبائع البربر التي لم تكن غريبة عنه فقد سبق أن عاش في بلادهم وبين قبائلهم عدة أعوام في عهد الحكم المستنصر.

وفوق ذلك هناك نص في غاية الأهمية يعضد ما أورده ابن خلدون في النص الذي سبقت الإشارة إليه حول اعتماد المنصور على هذه الطائفة البربرية من العدوة المغربية وهو ما يؤكده ابن الخطيب بقوله "فاستظهر بفرسان الهيجاء وأبطال الكريهة وأعلام السمرة من فرسان الغرب وزناتة الواردين على بابه في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم

فارتاش منهم بأجنحة وافرة لم يستظهر قبله ملك بمثلها ومغراوة وأزداجة وزناتة وصنهاجة"[16].

ويفهم من النص أعلاه، أن المنصور بفرط ذكائه استطاع أن يستثمر الخلافات بين هذه القبائل، لتجنيد ما أمكن من أبطالهم وأفذاذهم في صفوف جيشه.

وبغية الهيمنة والتسلط عمد المنصور إلى سياسة التفرقة والتنوع العرقي حتى أصبح أجناده قبائل مختلفة، وأجزاء ممزقة لا يربط بينها سوى الخضوع للسلطة المركزية التي أصبحت بيد الحاجب المنصور، وكان الهدف من هذه السياسة هو إضعاف الروابط القبلية للعناصر العربية الأندلسية في الجيش. وفي المقابل قرب المنصور البربر وصاروا من حاشيته وبطانته، وهم أظهر الجند عنده و أعلاهم مرتبة [17]. وتحولوا بذلك إلى أداة طيعة بين يديه يضرب بها كل ناعق.

وبهذه السياسة المنتهجة من قبل المنصور يكون قد لامس هدفه المتوخى ألا وهو إبعاد الارستقراطية العربية الأندلسية من الهيكلة العامة للجيش الأندلسي [18] وهو ما يشير إليه ابن خلدون: "وقدم رجال البرابرة وزناتة، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر"[19].

وُيستخلص من كلام ابن خلدون أن تقديم المنصور لهؤلاء البربر وإظهارهم على حساب العناصر العربية لم يكن حبا في البربر بقدر ما هو تفويت الفرصة على الأندلسيين وقطع الطريق أمامهم نحو السلطة خاصة وأن الظرف كان مناسبا لأن تظهر فيه شخصية عربية من السلالة الأموية لها من القدرات ما تستطيع أن تملأ هذا الشغور في السلطة وتزيح الأسرة العامرية.

لذلك راح المنصور بن أبي عامر يضرب على هذا الوتر الحساس، ويجرد هؤلاء الزعماء من معظم القوى التي كانت بين أيديهم، ويجعلها تحت السلطة المركزية التي أصبحت بين يدي الخليفة[20] وبفعل هذا التغيير الذي تبناه المنصور في نظام الجند زالت العصبية القبلية بين أفراد الجيش، وربما زالت تلك الأحقاد التي كانت بين الطوائف البربرية نفسها.

لقد سمحت هذه السياسة بتجمع العناصر البربرية في قطاع حساس، ومن ثم الإحتكاك بالشرائح المختلفة للمجتمع الأندلسي. وذلك أن تنظيمات المنصور استندت على جعل القوات المسلحة وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادة عليا وإلغاء النظام القديم الذي يقوم على أساس قبلي وعنصري، ولا شك أن الإنتصارات المتتالية التي حققها المنصور، وحسن بلاء البربر فيها، كانت تزيد من مكانتها في المجتمع الأندلسي فترسخت بذلك جدوى هذه الإصلاحات التي رفع لواءها المنصور بن أبي عامر.

إلا أن هناك من يرى أن هذا التنظيم الجديد لم يجلب سوى النتائج السلبية للمجتمع الأندلسي حيث يورد لنا أبو بكر الطرطوشي نصا في غاية الأهمية حيث يقول: "وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم انتقاصا لما كانت الأرض مقطعة (مملوكة) في أيدي الأجناد فكانوا يستغلونها فيرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الأرض عامرة ويقولون ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في الضعف والأموال وافرة والأجناد متوافرة والكراع (الخيل) والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن عامر فرد عطايا الجند مشاهرة يقبض الأموال على النطأ، وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا فاجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاوت الرعايا وضعفوا

عن العمارة فقلت الجباية المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منهم"[21].

ويستنتج من هذا النص أن تردي الأوضاع الإقتصادية في أواخر عهد المنصور مردها إلى انشغال الأجناد من قواته بالمرابطة في الثغور وخوض غمار الحروب. فحل محلهم جباة استغلوا هؤلاء الفلاحين وأرهقوهم.

إلا أنني أرى أن الأمر على النقيض من ذلك، حيث أن الاصلاحات والتغييرات العددية والنمطية التي أجراها المنصور على الهيكلة العامة وإعادة صياغة البنية القاعدية للجيش قد أعادت للأندلس هيبتها بفعل المدافعة في الثغور الشمالية التي كانت تنتهي بانتصار الجيش، واحتل بذلك مكانة بارزة كقطاع حساس، وعلت مكانة المنصور ابن أبي عامر باعتباره قائد هذا الجيش وحامي حمى الأندلس، ومع ذلك وبالرغم من وصول المنصور إلى تحقيق أهدافه إلا أنه ظل حريصا على الحفاظ على هذا الخزان البشري الذي لا ينضب معينه.

فهو عندما استولت قواته على مدينة فاس ندب المنصور الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي[22] ومنحه سلطات واسعة في إدارة البلاد وأمره أن يعمل على استمالة قبائل البربر وأوصاه بمغراوة وعلى رأسهم زيري بن عطية لما قدموه من المساعدات للأمويين وإخلاصهم للدعوة الأموية في بلاد المغرب[23].

وهكذا ومن خلال ما أوردته من النصوص يتضح جليا أن المنصور بن أبي عامر واعتمادا على هذه الفئة من البربر استطاع أن يقهر أعداءه في الداخل ويزيحهم عن مزاحمته،

ويفرض نوعا من الاستقرار الداخلي الذي عرفته الأندلس خلال عهد عبد الرحمن الناصر ونجله الحكم المستنصر.

كما ظلت آلته العسكرية متأهبة طوال فترة حكمه يقارع بها جيوش النصارى في معارك فاصلة لم يصب فيها بانهزام حيث يؤكد صاحب تاريخ الأندلس ما يلي: "وهي ست وخمسون غزوة لم يهزم قط في غزوة منها ولم يزل فيها ظافرا مؤيدا منصورا عند اسمه"[24].

وصاروا دروعا يحتمى بها عند الكريهة إذا حمي وطيسها حتى أن أهل الأندلس كانوا يحسدونهم على هذه المكانة التي حضيوا لدى المنصور حيث يشير إلى ذلك ابن الأثير: "لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء –أي البربر– للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد"[25]. وظل يستفز أعداءه في التخوم الشمالية وينزل بهم الهزائم تلو الهزائم ولا يترك لهم فرصة التوحد واستجماع قواهم وهو القائل:

رميت بنفسي هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم مخاطر

وإني لمقتاد الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادر[26]

الهوامش

1- ابن الخطيب ، لسان الدين ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، تحقيق : احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1964، - ص222

2- عبد القادر بوباية- المؤنس في مصادر تاريخ المغرب و الاندلس، كوكب العلوم ، الجزائر ، 2008، ص192.

3- ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف- المقتبس في أخبار بلاد الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- ط1- صيدا بيورت- 1426 هـ - 2006م ص151.

4- الشاعر أبو الطيب المتنبي المتوفى سنة 354هـ/950م قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ومطلعها-

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات يفيد موصوفاتها

أبو الطيب المتنبي – ديوان المتنبي- المكتبة الثقافية- بيروت- دت – ص186.

5- ابن حيان- المصدر السابق- ص150.

6- مجهول- تاريخ الأندلس- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- 1428هـ/ 2007م- ص216.

7- محمد سهيل طقوش- تاريخ المسلمين في الأندلس- دار النفائس- بيروت- 2005- ص 363.

8- أحمد مختار العبادي- في التاريخ العباسي والأندلسي- دار النهضة العربية- بيروت- 1972م- ص439.

9- ابن حيان- المصدر السابق- ص151.

10- ابن خلدون- عبد الرحمن ، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في الريخ العرب والعجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق : خليل شحاذة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ، 1421هـ ، 2000 ج4 ص177.

11- مجهول- مفاخر البربر- تحقيق عبد القادر بو باي ، دارابي رقراق الرباط ، ط 2005، ص106.

12- ابن عذاري المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تحقيق ليفي بروفنسال و ج س كولان- دار الثقافة بيروت- ط3، 1981م- ج2، ص2093-294.

13- دوزي راينهارت- المسلمون في الأندلس- ترجمة حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- 1994م- ج2 ص113.

14- الصفدي خليل ابن أيبك- الوافي بالوفيات- نشر هلموت ريتر– دار النشر فرانس ستاين- فيسبان- 1962- ص87.

15- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام- تحقيق إ. ليفي بروفنسال- دار المكشوف- بيروت- ط2- 1956م- ص102.

16- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص66.

17- ابن عذاري – المصدر السابق- ج2 ص279.

18- أرزقي محمد فراد- القوى المغربية في الأندلس- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1991م- ص20.

19- ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص177.

20- دوزي رينهارت- المسلمون في الاندلس ، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1994 ج2 ص111.

21- الطرطوشي أبو بكر- سراج الملوك- تحقيق محمد فتحي أبو بكر- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- 1414-1994- ج2 ص498-499.

22- عبد الودود السلمي: الحسن بن أحمد بن عبد الودود من خاصة المنصور ولاه المغرب بعد الاستيلاء على مدينة فاس سنة 376هـ/986م وخوله صلاحيات واسعة وقام بضبط البلد وهاب البرابرة بأسه وامتحنه المنصور بعد سعاية قام بها حاسدوه فوجده من المخلصين له وازدادت ثقته عنده، مجهول- مفاخر البربر- ص111.

23- ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص40/ مجهول- نفسه- ص111.

24- مجهول- تاريخ الأندلس- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- 1428هـ/ 2007م- ص226.

25- ابن الأثير عز الدين أبي الحسن- الكامل في التاريخ- دار صادر-بيروت- 1385هـ/1965م- ج9 ص33.

26- مجهول- تاريخ الأندلس- ص226.